د. إبراهيم عوض

سورة الرحمن

دراسة بلاغية وأسلوبية





مقدمة

سورة « الرحمن » من السُوَر المختلف حول كونها مكية أو مدنية . وقد أثبتُّ من خلال تحليل مضمونها وأسلوبها أنها تنتمى إلى القرآن المكى لا المدنىّ .

وهى كذلك تتضمن وصفًا لبعض النعيم الأخروى ، مما يتخذه المستشرقون والمبشرون أداةً للطعن فى الإسلام ونبيه والادعاء بأنه هو صاحب القرآن . وقد ردَّت الدراسة على هذه الادعاءات وكشفت عُوارها وسخفها ومجافاتها للحقيقة .

كما يزعم بلاشير ، فى ترجمته للقرآن إلى الفرنسية ، أن الآيات التى تبدأ بالآية الثانية والستين إلى آخر السورة هى نفسها الآيات من ٤٦ إلى ٦١ ولكن بعد أن أُعيدت صياغتها ، أى أن هاتين المجموعتين من الآيات هما نصّ واحد بصيغتين مختلفتين ، ولذلك فهو يقترح حذف المجموعة الأولى ، التى يزعم أنها هى النص القديم قبل تعديله . وقد بيَّنتُ من خلال تحليل الآيات المذكورة من الناحية الإعرابية والأسلوبية والمضمونية أن ما قاله هذا المستشرق هو تشكيك متهافت لا يستند إلى أى أساس .

وفوق هذا فقد عقدتُ فصلاً تناولت فيه المسائل البلاغية التى تضمّنَتْها السورة ، مثل التثنية التى تسودها ، وفاصلة الـ « ... ـان » التى تنتهى بها كل آياتها تقريبا ، ودلالة اختيار هذه الفاصلة ، وغير ذلك . والله ولى التوفيق .

سورة « الرحمن » : مكية أم مدنية ؟

فى المصحف أن سورة « الرحمن » مدنية . وعلى هذا النحو أيضا يصنفها محمد فؤاد عبد الباقى رحمه الله . وفى الكتب التى ترتب سور القرآن تُذْكَر هذه السورة عادة على أنها من المدنى . أما فى تفسير القرطبى « الجامع لأحكام القرآن » فنجد أن هناك من يقول بمكيتها ومن يقول بأنها مدنية . ويختار القرطبى الرأى الأول لما جاء فى الروايات من أن عبدالله بن مسعود تَحَدّى بها قريشا ، إذ قرأها بصوت عالٍ فى الكعبة فقاموا إليه وضربوه ، وأنه عليه السلام قرأها على الجنّ فى نخلة ، وقراءته القرآن على الجن إنما كانت فى مكة على ماهو معروف (١) .

وهناك رواية أخرى مؤادها أن الآيات الأولى من هذه السورة نزلت ردًا على أهل مكة ، الذين استنكروا إطلاق القرآن الكريم اسم « الرحمن » على الله سبحانه فقالوا : وما الرحمن ؟ (٢) فإذا صحت هذه الرواية كانت دليلاً إضافيا على مكية السورة .

وثمة دليل آخر من موضوعات السورة ، إذ هى تتحدث عن خلق الإنسان من الطين ، والجن من النار . وهو موضوع مكى . كذلك فإنها تتكلم بالتفصيل عن يوم القيامة وما سوف يحدث فيه من انشقاق السماء وإلقاء المجرمين فى جهنم وبئس المصير ، والحور العين والنعم الأخرى التى ادخرها الله للمتقين فى جنته . وذلك من سمات القرآن الذى نزل بمكة .

وهذا علاوة على أن السورة تخلو من الموضوعات التشريعية والحديث عن الجهاد واليهود والمنافقين وغير ذلك من موضوعات القرآن المدنى .

فإذا حللناها أسلوبيـا وجدنا لفظة « الرحمن » (التى تشكل أول آية فيها) لم تأت وحدها دون « الرحيم » فى آية سورة مدنية (٣) . وقد وردت فى القرآن منفردة خمسين مرة ونيّفًا .

ـ ما اقترن لفظا « الشمس » و « القمر » فى القرآن إلا فى السُوَر المكية ، ما عدا سورة « الحج » ، التى بعضها مكى وبعضها مدنى . والآية الثامنة عشرة منها التى وقع فيها ذلك يغلب على الظن أنها من الجزء المكى . وقد اقترن هذان اللفظان فى قريب من عشرين موضعا فى القرآن الكريم .

ـ كلمة « حُسْبان » فى المرتين الأخريين اللتين وردت فيهما خارج سورة « الرحمن » (الآية / ٥) جاءت فى سورتين مكيتين هما سورة « الأنعام » وسورة « الكهف » . بل إن كون الشمس والقمر حُسْبانًا قد تكرر أيضا فى سورة « الأنعام » (المكية كما بيَّنت لتوى) .

ـ كلمة « الشَّجَر » الموجودة فى الآية السادسة من سورتنا هى من الكلمات المكية (٤) . وقد تكررت فى القرآن خمس مرات ، إلى جانب سورة « الرحمن » . بل إن مادة « ش ج ر » من المواد التى تستأثر السور المكية بالغالبية العظمى من اشتقاقاتها ، إذ بينما لم ترد فى المدنىّ إلا فى أربعة مواضع نجدها قد وردت فى النصوص المكية فى اثنين وعشرين موضعا ، عدا « الرحمن » .

ـ ومثل مادة « ش ج ر » فى ذلك مادة « وزن » ، التى ترددت مشتقاتها فى القرآن الكريم فى ثلاثة وعشرين موضعًا : للمدنى منها موضع واحد هو الآية الخامسة والعشرون من سورة « الحديد » . والباقى كله ، فيما عدا آية « الرحمن » ، هو من المكى .

ـ ومثلهما أيضا فى هذا مادة « ط غ و » ، التى ورد منها الفعل « تَطْغَوْا » فى الآية الثامنة من سورتنا ، إذ قد تكررت فى القرآن تسعا وثلاثين مرة معظمها فى المكى . وما ورد فى المدنى فهو منحصر فى اشتقاق « الطغيان » « والطاغوت » . أما الأفعال وأسماء الفاعلين فكلُّها مكية .

ـ وكذلك مادة « خ س ر » ، التى جاء منها فى سورتنا (الآية / ٩٩) قوله تعالى : « ولا تُخْسِروا (الميــزان) » ، فإن أغلبية اشتقاقاتها جاءت فى سور مكية . ثم إن الحديث عن إخسار الميـزان قــد تكــرر مــرة أخـرى فى سورة « المطففون » (الآية / ٣) ، وهى سورة مكية .

ـ كلمة « آلاء» ، التى تكررت فى السورة كثيرا ابتداءً من الآية / ١٣ ، قد تكررت فى القرآن خارج « الرحمن » ثلاث مرات ، وذلك فى الأعراف / ٦٩ ، ٧٤ ، والنجم / ٥٥ . وكلهـا نصوص مكيـة . بل إن عبـارة « فبأى آلاء ربكــ ... ؟ » قد وردت مرة أخرى فى القرآن ، وكان ذلك فى « النجم » (المكية كما أشرنا) .

ـ كلمة « حَبّ » ، التى أتت فى الآية ١٢ من سورتنا ، هى من الكلمات التى لا وجود لها خارج نطاق السور المكية . وقد تكررت فى القرآن ست مرات ، غير سورة « الرحمن » .

ـ كلمة « العَصْف » وردت مــرة أخــرى وحيــدة فــى الآيــة ١٩ من سورة « الفيل » ، وهى سورة مكية . بل إن مشتقات مادة « ع ص ف » كلها ليس لها أى وجود فى غير السور المكية . وقد وردت فى ستة مواضع غير آية « الرحمن » .

ـ تتحدث الآيتان / ١٤ ، ١٥ عن خلق الإنسان من طين ، والجن من نار . وهــذا الموضــوع لم يُطْــرَق فــى أى مــن الســور المدنية . بل إن كلمتى « الجنّ »

و « الجانّ » لم تأتيا إلا فى النصوص المكية . لا ، بل يشمل ذلك مادة « ج ن ن » كلها ، ماعدا كلمة « جَنّة » .

ـ فى الآية ١٧ من سورتنا نجد قوله تعالى : « رب المشرقين ورب المغربين » ، وهذا تعبير لم يرد إلا فى المكى : « رب المشرق والمغرب » (الشعراء / ٢٨ ، والمزمل / ٩) ، « رب المشارق » (الصافات / ٥) ، « رب المشارق والمغارب » (المعارج / ٤٠) .

ـ فى المرة الأخرى التى وردت فيها عبارة « مَرَجَ البحرين » (غير الآية ١٩ من « الرحمن ») كان ذلك فى وحى مكى : الفرقان / ٥٣ . بل إن الكلام عن البحرين (العذب والملح) لم يأت إلا فى السور المكية ، وذلك فى فاطر / ١٢ ، علاوة على « الفرقان » و « الرحمن » .

ـ وردت كلمة « برزخ » ثلاث مرات فى القرآن . وفيما عدا الآية ٢٠ من سورة « الرحمن » نجدها قد وردت فى سورتين مكيتين : المؤمنون / ١٠٠ ، والفرقان / ٥٣ .

ـ جاءت كلمة « اللؤلؤ » (معرفة بـ « أل ») ثلاث مرات أيضا فى القرآن : مرة فى « الرحمن » (الآية / ٢٢) ، والمرتان الأخريان فى سورتين مكيتين : الطور / ٢٤، والواقعة / ٢٣ .

ـ عبارة « الجَوارِ المنشآت فى البحر كالأعلام » وردت بنصّها (ما عدا كلمة « المنشآت ») مرة أخرى خارج سورة « الرحمن » (الآية / ٢٤) ، وكان ذلك فى سورة « الشورى » (الآية / ٣٢) ، وهى سورة مكية . كذلك جاءت كلمة « الجَوَارِ » مرة ثالثة فى الآية ١٦ من سورة « التكوير » المكية . كما ورد مفردها بنفس المعنى فى

الآية ١١ من « الحاقة » ، وهى سورة مكية أيضا .

ـ عبارة « يا معشر الجن (والإنس) » قد وردت في غير الآية ٣٣ من سورتنا في موضعين آخرين من سورة « الأنعام » (الآيتان / ١٢٨ ، ١٣٠) ، وهى سورة مكية .

ـ انشقاق السماء يوم القيامة (بلفظ « الانشقاق » أو ما فى معناه) لا يُذكَر إلا فى القرآن الذى نزل بمكة : الفرقان / ٢٥ ، والطور / ٩ ، والحاقة / ١٦ ، والمزمل / ١٨ ، والمرسلات / ٩ ، والنبأ / ١٩ ، والانفطار / ١ ، والانشقاق / ١ . وذلك غير الآية ٣٧ من سورة « الرحمن » .

ـ قوله تعالى فى الآية ٣٩ من سورتنا : « فيومئذ لا يُسأل عن ذنبه إنس ولا جانّ » يدور حول نفس الفكرة التى فى قوله تعالى : « ولا يُسأل عن ذنوبهم المجرمون » ، وذلك فى الآية ٧٨ من سورة « القصص » ، وهى من سور المكّى .

ـ اشتقاقات « الإجرام » ، وقد وردت بضع عشرات من المرات فى القرآن (٥٨ مرة بما فيها الآيتان ٤١ ، ٤٣ من « الرحمن ») ، لم يأت شىء منها فى المدنى إلا فى موضعين : التوبة / ٦٦ ، والأنفال / ٨ .

ـ وبالنسبة لكلمة « النواصى » (فى الآية ٤١ من سورتنا) ، نرى أنها تكررت بصيغة المفرد ثلاث مرات فى القرآن ، وكلها فى وحى مكى : هود / ٥٦ ، والعلق / ١٥ ، ١٦ .

ـ الفعل « كذب / يكذّب » ، الذى ورد خارج سورة « الرحمن » ما يقارب المائة والخمسين مرة ، لم يحدث أن أتى ، إلا فى الندرة ، فى نص مدنى .

ـ كلمة « حميم » ورد ذكرها فى القرآن تسع عشرة مرة (إلى جانب الآية ٤٤

من « الرحمن ») . وكلُّها ، ما عدا اثنتين منها على أكثر تقدير ، من المكى .

ـ تكررت عبارة « خاف مقام ربّه » (الموجودة فى الآية ٤٦ من سورتنا) مرة أخرى فى سورة « النازعات » (الآية / ٤٠) ، وهى سورة مكية .

ـ وبالنسبة لتثنية الجنّة فى الآية ٤٦ فصاعدا من سورتنا ، لم يتكرر ذلك إلا فى الوحى المكى : الكهف / ٣٢ ، ٣٣ ، وسبأ ١٥ ، ١٦ (مرتين) .

ـ وردت كلمة « طَرْف » (أى العين) خمس مرات خارج « الرحمن » ، وكلها فى سور مكية : إبراهيم / ٤٣ ، والنمل / ٤٠ ، والصافات / ٤٨ ، وص/٥٢ ، والشورى / ٤٥ . وبطبيعة الحال فإن تعبير « قاصرات الطرف » ، الذى ورد فى القرآن مرتين ، لم يأت إلا فى نص مكى .

ـ وفى الآية / ٦٨ نجد الألفاظ الثلاثة التالية : « فاكهة ونخل ورمان » . وإليك بيان ورودها فى القرآن : الأولى وجمعها لم يردا ، خارج « الرحمن » ، إلا فى سور مكية . وقد تكررا ١٤ مرة . بل إن مادة « ف ك هـ » كلها هى من المواد التى لا وجود لها خارج السور المكية .

ـ وكذلك كلمات « النخلة » و « النخيل » و « النخل » لم ترد ، خارج سورة « الرحمن » ، إلا فى سور مكية ، اللهم حاشا كلمة « النخيل » فى سورة « البقرة » (فى الآية / ٢٦٦) . وقد وردت هذه الكلمات الثلاث فى عشرين موضعا من القرآن الكريم . كما وردت كلمة « رمّان » ، خارج « الرحمن » ، مرتين أخريين فى سورة « الأنعام » (الآيتان / ٩٩ ، ١٤١) ، وهى من سور المكى .

ـ كلمة « حُور » فى المرات الثلاث التى وردت فيها خارج سورة « الرحمن » (الآية / ٧٢) لم ترد إلا فى سور مكية : الدخان / ٥٤ ، والطور / ٢٠ ،

والواقعة / ٢٢ .

ـ مادة « و ك أ » ، التى تكررت مشتقاتها فى أحد عشر موضعًا من القرآن (منها موضعان فى سورة « الرحمن » : الآيتان / ٥٤ ، ٧٦) ، لم تأت فى المدنى إلا مرة واحدة ، وذلك فى الآية ١٣ من « الإنسان » . ومع ذلك فقد تكون هذه الآية أيضا مكية .

ـ ومن السمات الأسلوبية اللافتة للنظر أيضا فى السورة قصر آياتها ، ممّا الغلبة فيه للوحى المكى على الوحى المدنى .

ـ كذلك ففى السورة عبارة تتردّد منذ الآية السادسة عشرة بعد كل آية أو آيتين ، وهى قوله تعالى : « فبأى آلاء ربكما تكذبان ؟ » . وهذه سمة لا توجد فى القرآن المدنى ، بخلاف المكى ، الذى يجد الإنسان فيه ذلك فى سورة « الأعراف » (التى ترددت فيها عدة مرات عبارة : « قال الملأ الذين كفروا / استكبروا ... ») ، و « الشعراء » (حيث يتردد فى جزء كبير منها بعد كل عدة آيات قوله تعالى : « إن فى ذلك لآية وما كان أكثرهم مؤمنين * وإن ربك لهو العزيز الرحيم ») ، و « الصافات » (التى يتكرر فيها بضع مرات قوله تعالى : « إنا كذلك نجزى المحسنين * إنه من عبادنا المؤمنين ») ، و « القمر » (حيث يقابل القارىء هاتين الآيتين عدة مرات : « فكيف كان عذابى ونذر ؟ * ولقد يسّرنا القرآن للذكر فهل من مُدَّكر ؟ ») ، والمرسلات » (التى يتكرر فيها قوله سبحانه : « ويل يومئذ للمكذبين » بعد كل بضع آيات) .

بعد هذا كله نقول بضمير مطمئن إن سورة « الرحمن » هى من السور المكية . وقد كنت أوّلاً أحسبها مدنية لكثرة ما قرأت أنها كذلك . ثم تلت ذلك مرحلة كنت

فيها متشككا فى تصنيفها بين المدنى . ثم هأنذا بعد هذا التحليل الأسلوبى أجد أنها مكية .

هوامش الفصل الأول

١- انظر القرطبى / الجامع لأحكام القرآن / الهيئة المصرية العامة للكتاب / ١٩٨٧ م / ١٧ / ١٥١ .

٢- السابق / ١٧ / ١٥٢

٣- لقد عدّ بعض علماء القرآن « الرعد » من المدنى ، وفيها كلمة « الرحمن » دون « الرحيم » (وذلك فى الآية / ٣٠) ، لكننى أثبتُّ عن طريق تحليلها مضمونيا وأسلوبيا أنها مكية (انظر الفصل الأول من كتابى « سورة الرعد - دراسة أسلوبية وأدبية ») .

٤- وإن كانت الآية ١٨ من سورة « الحج » ، وفيها هذه الكلمة ، تُعَدّ فى « المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم » مدنية . ولا أحسبها كذلك .

مسائل بلاغية

أول ما نشير إليه هنا هو تثنية ضمير المخاطب فى قوله تعالى : « فبأى آلاء ربكما تكذّبان ؟ » ، الذى تكرر فى السورة إحدى وثلاثين مرة ، وكذلك فى قوله تعالى : « يُرْسَلُ عليكما شُواظ من نار ونحاسٌ فلا تنتصران » (١) . والمتبادر إلى الذهن أن الله سبحانه يخاطب الجن والإنس ، وإن كان استخدم لهما أحيانًا ضمير الجمع أيضا ، كما فى الآية التالية مثلا : « يا معشر الجن والإنس ،إن استطعتم أن تنفذوا من أقطار السماوات والأرض فانفذوا . لا تنفذون إلا بسلطان » (٢) . وقد ذكر بعض المفسرين تعليلاً آخر بالإضافة إلى هــذا ، إذ ساق القرطبى ما قيل من أن « الخطـــاب للإنــس على عــادة العـــرب فى خطاب الواحد بلفظ التثنية حسبما تقدم من القــول فى « ألقيا فى جهنم » وكذلك قولــــه : « قفــا نبك ... » و « خليلىَّ ، مُرَّا بى ... » (٣) ، وهو ما يبدو لى بعيدًا ، إذ لا دليل على أن التثنية فى هذه الشواهد الثلاثة للمفرد . وما دام لا دليل على أن المقصود بالكلام فيها هو خلاف الظاهر فينبغى إجراؤه عليه . وفى الشاهد الأول ، وهو الآية القرآنية ، لا أدرى لم يتجاهلون أن الكلام قبلاً كان عن « السائق » و « الشهيد » اللذين يصاحبان كل نفس يوم القيامة واللذين أعتقد أن الخطاب فى ذلك الشاهد موجَّه إليهما .

وفى الترجمة التفسيرية التى قام بها مالك غلام فريد يضيف المترجم إلى التوجيهين السابقين توجيهين آخرين ، إذ يقول إنه ربما كان المقصود بالخطاب فريقين من الناس : المؤمنون والكافرون ، أو الزعماء والأتباع ، أو الأغنياء والفقراء ، أو البيض والملونون ، أو ربّما كانت التثنية تأكيدًا لعظمة الأمر الإلهى الذى تتضمنه

الآيات السابقة (٤) . وهذان التوجيهان هما أيضا يفتقران إلى الدليل ، ومن ثم لا إقناع فيهما . إنهما مجرد تخمين ، بل هما يتعاميان عن أن الكلام فى السورة من أول الآية الرابعة والثلاثين موجَّه إلى الإنس والجنّ ، حيث جاء بصريح اللفظ : « يا معشر الجن والإنس ، إن استطعتم أن تنفذوا من أقطار السماوات والأرض فانفذوا . لا تنفذون إلا بسلطان * فبأى آلاء ربكما تكذبان ؟ * ... إلخ » . وهو ما جاء مثلا فى قوله تعالى أيضا : « يا معشر الجن والإنس ، ألم يأتكم رسل منكم يقصّون عليكم آياتى وينذرونكم لقاء يومكم هذا ؟ قالوا : شهدنا على أنفسنا . وغرَّتْهم الحياة الدنيا ، وشهدوا على أنفسهم أنهم كانوا كافرين » (٥) . ومعروف أن المكلفين من بين المخلوقات الإلهية هم الإنس والجنّ . وهذا أمر جاءت به الآيات القرآنية المختلفة (٦) . كما فات الكاتب أن الناس يمكن أن ينقسموا بإزاء الدعوة إلى أكثر من فريقين : فهناك مثلا المؤمنون والكافرون والمتشككون واللامبالون . وهناك الأغنياء والفقراء وأفراد الطبقة المتوسطة . ثم ما دخل البيض وغيرهم هنا ؟ وعلى كل حال ، فالبشر ليسوا بيضا وغير بيض فقط ، إذ من غير البيض الزنوج والجنس الأصفر وذوو البشرة السمراء (مثلنا نحن العرب) والنحاسيو البشرة (الهنود الحمر) . ثم إن تقسيمه للشعوب على أساس اللون يوحى بأن البيض هم أساس البشر ، إذ هو يجعلها شعوبًا بيضاء وشعوبًا ملونة ، أى أن البيض هم وحدهم فى جانب وسائر الشعوب فى الجانب الآخر . وهذا انشغال شديد بالبيض ، الذين لم تكن لهم عند نزول القرآن هذه الأهمية التى لهم الآن بعد هبوبهم من تخلفهم فى القرون الأخيرة واحتلالهم أوطان الشعوب الأخرى وسرقتهم خيراتها وتعاليهم عليها . لا ، بل إنهم بعد الفتوحات الإسلامية قد دخلوا فى سبات حضارى وران عليهم تخلف شديد فى كل نواحى الحياة

تقريبًا لم يفيقوا منه كما قلنا إلا فى القرون الأخيرة .

أما ريجى بلاشير ، المستشرق الفرنسي المعروف ومترجم القرآن إلى الفرنسية ، فيخالف من قال بأن التثنية فى السورة للإنس والجنّ ويزعم أن الأصح القول بأنها للتكثير ، وأن ذلك شائع فى الأسلوب العربى القديم وبخاصة فى الشعر (٧) . والواقع أن الشعراء العرب القدماء لم يخاطبوا الاثنين فقط بل خاطبوا أيضا الفرد والجماعة . وبالنسبة لمعلقة امرىء القيس نفسها التى وردت فى كلام القرطبى كما مرَّ بنا قبل قليل ، والتى تبدأ بقوله : « قفا نبك » باستخدام ضمير المخاطب المثنى نجد الشاعر يقول فى موضع آخر منها : « أصَاحِ ، ترى برقًا أُريك وميضُه ... » . كذلك فإن طَرَفَة ، صاحب القصيدة الأخرى التى أشار القرطبى إلى أول أبياتها أيضا ، وهو « خليليَّ ، مُرَّا بى على أُمّ جُنْدُبِ » ، حيث يخاطب الشاعر الجاهلى صديقين له ، نرى أنه فى بيت آخر من نفس القصيدة يقول :

وقوفًا بها صحبى علىَّ مَطِيّهــــم   يقولون : لا تهلك أسًى وتجلَّدِ

ذاكرًا أصدقاء لا صديقًا واحدًا . ثم لماذا نقيس القرآن الكريم هنا على الشعر الجاهلى والموضوعان مختلفان والأسلوبان كذلك مختلفان ؟ وهذا بافتراض أن من سمات الأسلوب الشعرى الجاهلى استخدام التثنية للدلالة على التكثير كما يقول بلاشير ، وهو ما وجدنا ما ينقضه فى قصيدتين من أشهر قصائده (٨) .

وعلى أية حال فليست التثنية فى السورة مقصورة على خطاب الإنس والجن فحسب ، بل يشمل كل شىء فيها تقريبا : الشمس والقمر ، والنجم والشجر، والسماء والأرض ، والمشرقان ، والمغربان ، والفاكهة والنخيل ، والحب والرمان ، والمجرمون والذين يخافون مقام ربهم ، والبحران ، وشواظ النار والنحاس ، والجنتان اللتان من

دونهما جنتان ، والعينان الجاريتان ، والعينان النضاختان ، والياقوت والمرجان ، والرفرف الخُضر والعبقرى الحسان ، وجنهم والحميم الآنى . بل إن الله سبحانه ووجهه الأقدس قد وصف كل منهما بأنه ذو جلال وإكرام . وهاتان صفتان اثنتان . وبالمناسبة ، فهذه هى السورة الوحيدة التى ذُكر فيها مغربان اثنان .

ويعلق عبد الله يوسف على فى ترجمته للقرآن على شيوع التثنية فى السورة قائلاً إن « السورة عبارة عن سمفونية تثنوية تؤدى فى نهاية المطاف إلى الوحدانية (متمثلة فى الخالق الأوحد سبحانه وتعالى) . إن كل المخلوقات مكونة من زوجين ، والعدل هو التوفيق بين نقيضين للوحدة . إنه تسوية النزاع الذى لا ينتهى بين الحق والباطل » (٩) . ولا ننس أيضا أن السورة تخاطب الإنس والجنّ ، أى مُثنًّى ، فناسب أن تقوم على التثنية فى عمومها .

ومما يلفت النظر فى هذه السورة أيضا تكرر قوله تعالى : « فبأى آلاء ربكما تكذبانِ ؟ » إحدى وثلاثين مرة بدءًا من الآية الثالثة عشرة . وقد فصل الصاوى فى حاشيته على تفسير الجلالين مواضع تكرارها على النحو التالى : « ثمانية منها عقب آيات تعداد النعم ، ثم سبعة عقب ذكر النار وشدائدها على عدّة أبوابها لأن التخلص منها نعمة ، ثم ثمانية عقب وصف الجنتين الأوليين كعدة أبوابها ، ثم ثمانية عقب وصف الجنتين اللتين هما دون الجنتين الأوليين » (١٠) . وهذا من أسرار الأعداد فى القرآن : فللجنة كما قال ثمانية أبواب ، ولذلك تكررت الآية عقب ذكر كل من الجنتين مرات بهذا العدد . وشكر النعم يؤدى إلى الجنة ، ولذلك تكررت الآية بعد هذه النعم نفس العدد من المرات . أما جهنم ، التى جاء فى سورة « الحجر » (١١) أن لها سبعة أبواب ، فقد كُرّرت الآية بعدها مراتٍ سبعًا .

والتكرار هو إحدى وسائل التوكيد فى كل اللغات والآداب . وهذا أمر متعارف . وقد ضرب بعض المفسرين أمثلة من الكلام العربى على هذا الأسلوب ، كالقرطبى ، الذى قال إن ذلك « كما تقول لمن تتابع فيه إحسانك وهو يكفره وينكره : ألم تكن فقيرا فأغنيتك ؟ أفتنكر هذا ؟ ألم تكن خاملاً فعززتك ؟ أفتنكر هذا ؟ ألم تكن صَرُورة (أى لم تحج قبلاً) فحججتُ بك ؟ أفتنكر هذا ؟ ألم تكن راجلاً فحملتك ؟ أفتنكر هذا ؟ » (١٢) . كما أورد الطبرسى عدة شواهد من الشعر العربى القديم ، منها أبيات مهلهل بن ربيعة فى رثاء أخيه كليب التى كرر فيها قوله : « على أنْ ليس عدلاً من كليب إذا (فعل كذا وكذا) » خمس مرات ، وأبيات ليلى الأخيلية التى ترثى بها توبة بن الحميّر وتكررت فيها عدة مرات هذه العبارة : « نِعْم الفتى ياتَوْب » وغير ذلك (١٣) .

هذا ، وقد سبق أن أشرتُ فى الفصل الأول من هذه الدراسة إلى أن ذلك الأسلوب موجود فى عدة سور من القرآن : « الشعراء » و « الصافات » و « القمر » و « المرسلات » .

لكل ما تقدم لا أجد معنًى لقول بعضِ مترجمى القرآن إلى اللغات الأوربية من المستشرقين ، صراحةً أو تلميحًا ، إن هذا التكرار فى سورة « الرحمن » تقليد للمزمور السادس والثلاثين بعد المائة . قال ذلك مراتشى Marracci وسيل Sale (١٤) وداود N. J. Dawood (١٥) ولودفيج أولمان Ludvig Ullmann (١٦) .

والمزمور المذكور مكون من ست وثلاثين آية كل منها تنتهى بعبارة « لأن إلى الأبد رحمته » (١٧) ، وذلك على النحو التالى : « احمدوا الرب لأنه صالح لأن إلى الأبد رحمته * احمدوا إله الآلهة لأن إلى الأبد رحمته * احمدوا رب الأرباب لأن إلى

الأبد رحمته * الصانع العجائب العظام وحده لأن إلى الأبد رحمته * ... إلخ » .
والذين يزعمون أن سورة « الرحمن » تقليد لهذا المزمور يقصدون ، فيما هو واضح ، أن تكرار آية « فبأى آلاء ربكما تكذبانِ ؟ » يناظر تكرار عبارة « لأن إلى الأبد رحمته » .

وبنظرة سريعة إلى السورة والمزمور نجد أنه بينما لم تبدأ العبارة القرآنية فى التكرر إلا منذ الآية الثالثة عشرة فإن عبارة المزمور قد تكررت منذ البداية إلى الختام . كذلك فإن قوله تعالى : « فبأى آلاء ربكما تكذبان ؟ » لم تختتم به السورة ، على عكس العبارة المزمورية ، التى كانت آخر شىء فى نص العهد القديم . وفضلا عن هذا فإن عبارة المزمور تشكل الجزء الأخير من كل آية فيه ، على حين أن العبارة القرآنية تشكل آية مستقلة بحالها . ليس ذلك فقط ، بل إنها لم تتكرر دائما بعد كل آية ، إذ جاءت أكثر من مرة بعد آيتين اثنتين . والعبارتان بعد مختلفتان : فواحدة خبرية ، والثانية استفهامية . وتلك تتحدث عن رحمة اللّه الأبدية ، وهذه توبّخ المكذبين من الإنس والجن بنعم الله . وإذن فليس هناك من مشابهة بين السورة والمزمور إلا فى التكرار بوجه عام . ولو كان المزمور وحيًا إلهيا لكانت المشابهة مفهومة . بيد أن وحيا إلهيا لايمكن ، فيما أعتقد، أن يصف الله بـ « رب الأرباب » و « إله الآلهة » كما جاء فى الآيتين الثانية والثالثة من المزمور ، لأن هذا بمثابة اعتراف بتعدد الآلهة والأرباب (١٨) .

ولا يمكن لمفترٍ يحترم نفسه وعقول مخاطبيه أن يقول إن الرسول قد قلَّد أسلوب المزمور . ذلك أنه قد نزلت سورة « الرحمن » بمكة كما انتهينا من تحليل مضمونها وصياغتها ، أى قبل أن يتصل الرسول فى المدينة باليهود أصحاب الكتاب

الذى ينتمى إليه ذلك المزمور . وحتى لو كانت السورة مدنية فكيف تأتّى للرسول عليه السلام أن يطلّع على هذا المزمور وهو مكتوب بلغة غير عربية ، ولم يكن النبى فوق ذلك يذهب إلى مدراس اليهود أو يجالسهم وهم يقرأون كتابهم ؟ ثم إن المزامير ليست قصصًا وحكايات حتى يقال إنها مما يشوق ويهمّ ، بل هى تأملات وأدعية وما أشبه مما لا يثير اهتمام غير المؤمنين بهذا الكتاب أو الدارسين المتخصصين فيه . ولو كانت « الرحمن » بعد كل ذلك تقليدا للمزمور المذكور أفكان اليهود سيسكتون فلا يشنّعون عليه صلى الله عليه وسلم ؟

وثالثة النقاط التى أريد أن أدرسها هنا هى قابلية بعض آيات سورة « الرحمن » لأكثر من تفسير . والمعروف أن كثيرًا من العبارات القرآنية يمكن أن يفسَّر على أكثر من وجه . وذلك قد يكون راجعًا إلى الإيجاز الذى صيغت به العبارة أو إلى الطريقة التى رُكّبت بها ألفاظها أو إلى استخدام الضمير بدلاً من الاسم الظاهر . لنأخذ مثلاً قوله تعالى : « وإن من أهل الكتاب إلا ليؤمنَنّ به قبل موته » (١٩) . فهل المقصود أنه ما من أحد من أهل الكتاب إلا ليؤمنن بعيسى قبل موته عليه السلام فى نزلته الثانية فى آخر الزمان ؟ أم هل المراد أنه قبل أن يموت هو سيؤمن بعيسى عليه السلام ؟ أم لا هذا ولا ذاك ، إنما المعنى أنه سيؤمن بمحمد عليه السلام عند معاينة الموت وتجلّى الحقيقة له ؟ إن هذه كلها تفسيرات أوردها المفسرون ، والآية تقبلها . ومثال ثانٍ هو قوله تعالى : « الله الذى خلق السماوات بغير عَمَدٍ ترونها » (٢٠) ، الذى يقبل أن يكون معناه أنه سبحانه قد خلق السماوات بعمد غير مرئية ، أو قد يكون المعنى أنه خلقها بغير عمد على الإطلاق ، وهأنتم أولاء ترونها فعلاً كذلك .

وفى سورتنا من هذا الطراز قوله تعالى : « الشمس والقمر بحُسْبان » (٢١) الذى قيل فى تفسيره : « الشمس والقمر بحسبان ومنازل يُرْسَلان » ، و « يجريان بعدد وحساب » ، و « يُحسَب بهما الدهر والزمان . لولا الليل والنهار والشمس والقمر لم يدر أحد كيف يحسب شيئا . لو كان الدهر ليلاً كله كيف يحسب أو نهارًا كله كيف يحسب ؟ » ، « ويحسبان ... كحسبان الرَّحا (أى محوره) » (٢٢) ، و « بحسبان : تقدير آجالهما ، أى يجريان بآجال كآجال الناس ، فإذا جاء أجلهما هلكا . نظيره : كلٌّ يجرى لأجل مسمًّى » (٢٣) ، « وحجم الشمس ودرجة حرارتها وبعدها عنا وسيرها فى فلكها وكذلك حجم القمر وبعده ودورته ، كلها محسوبة حسابا كامل الدقة بالقياس إلى آثارهما فى حياة الأرض ، وبالقياس إلى وضعهما فى الفضاء مع النجوم والكواكب الأخرى » (٢٤) ، والذى جاءت ترجمته عند رودويل مثلا كالآتى : « The sun and the moon have each their times : الشمس والقمر لكل منهما مواعيده » (٢٥) . وعند محمد مارمادوك بكثل على النحو التالى : « The sun and the moon are made punctual : الشمس والقمر منضبطان فى مواعيدهما لا يتخلفان أبدا » (٢٦) ، وعند ن. ج. داوود هكذا : « The sun and the moon pursue their ordered course : الشمس والقمر يجريان فى مسارهما المقدَّر لهما » (٢٧) ، وعند لودفيج أولمان بالطريقة التالية : « Sonne und Mond bewegen sich nach bestimmter Regeln : الشمس والقمر يتحركان بقواعد منضبطة » (٢٨) . والآية تقبل كل هذه التفسيرات . ولا أستبعد أن تظهر تفسيرات أخرى حسبما يستجد من علوم ومعارف . والسبب هو إيجاز العبارة فى الآية . إن الأسلوب القرآنى هو أسلوب غنىّ مشحون .، ويظهر أثر ذلك فى تعدد التفاسير للآية أو الجملة الواحدة ، وهو ما يعبِّر عنه القول

الشائع : « القرآن حمَّال أوجه » .

ومثال آخر نجده فى قوله عز شأنه : « والسماء رفعها ، ووضع الميزان » (٢٩) ، إذ « الميزان » هنا يمكن أن يكون هو الشَّريعة التى أرسلها الله للعباد لتكون لهم ميزانا يزنون به أعمالهم ويميزون الصواب من الخطإ . ويمكن أن يكون المقصود به هو العدل . وكذلك يمكن أن يكون المراد هو ميزان الأعمال يوم القيامة . كما يمكن أن يكون هو ميزان البيع والشراء . وقد يكون هو النظام الدقيق الذى رُتِّب عليه الكون . وكل هذا مما تقبله الآية ، وربما قبلت معه غيره أيضا . والسرّ فى ذلك أنها لم تحدد ذلك الميزان ، بل تركته مطلقا . وأفضل شيء هو عدم تقييد الآية بمعنى أو أكثر من هذه المعانى دون باقيها . ذلك أنَّ غنى الأسلوب القرآنى فى مثل هذه الحالة يتطلب ألاَّ يضعه الإنسان فى قالب ضيق من المعانى .

وقد وصفت الآية الثانية والأربعون الجنتين اللتين أعدهما الله تعالى للذين يخافون مقام ربهم بأنهما « ذواتا أفنان » . وقد يتسرع بعضنا قائلاً إن « الأفنان » ليست إلا جمعًا لـ « فنن » ، فهذا هو ما يتبادر إلى الذهن حين تُذْكَر الجنان والبساتين ، ولكن إذا عرف الإنسان أن « أفنان » يمكن أيضا أن تكون جمع « فَنّ » (إذ إن صيغة « أفعال » هى جمع لـ « فَعْل » ، مثلما هى جمع لـ « فَعَل » و « فِعْل » و « فُعْل ») جاز أيضا عنده أن يكون المعنى هو أن هاتين الجنتين ذواتا فنون وألوان من المتع والنعم الإلهية ... وهكذا .

وفى سورتنا ، كما فى السور غير القصيرة فى القرآن ، نلاحظ تكرر بعض الكلمات والعبارات ، ممَّا يشعر القارىء معه وكأنه يسمع فى جنباتها أصواتًا وأصداءً . لقد تكررت كلمة « الإنسان » مثلاً فى الآيتين الثالثة والرابعة عشرة .

وكذلك كلمة « الإنس » فى الآيات الثالثة والعشرين والسادسة والخمسين والرابعة والسبعين . كما تكررت عبارة « لم يطمثهن إنس قبلهم ولا جان » فى هاتين الآيتين الأخيرتين . ويمكن القارىء أن يتتبع تكرر كلمات « الميزان » و « جنتان » و « عينان » و « المرجان » و « فاكهة » و « نخل » و « حِسان » و « المجرمون » ، وعبارة : « ... ربك ذو / ذى الجلال والإكرام » ، فضلاً عن قوله تعالى : « فبأى آلاء ربكما تكذِّبان ؟ » .

وإلى جانب تكرار الكلمة أو العبارة كما هى هناك تكرار محوَّر . مثال ذلك « البحرين » (الآية / ١٩) و « البحر » (الآية / ٢٤) ، و « الإحسان » (الآية / ٦٠) و « حِسان » (الآيتان ٧٠ / ٧٦) .

هذا ، وقد لاحظت أن حرف السين يكثر تردده فى الآيات الأولى من السورة ابتداء من قوله تعالى : « خلق الإنسان » (الآية الثالثة) حتى الآية الرابعة عشرة ، وهى الآية التى يذكر فيها خلق الإنسان من صلصال كالفخار ، ثم يكثر تردد حرف الجيم على مدى عدة آيات ابتداءً من الآية التى تلى هذا والتى تتحدث عن خلق الجان من مارج من نار . وحرف السين هو أبرز حرف فى كلمة « الإنسان » ، على حين أن « الجيم » هى أبرز حروف كلمة « الجانّ » .

وفاصلة السورة تنتهى كلها تقريبًا بالألف والنون ، ولا وجود لهذه الفاصلة فى القرآن (على قدر انتباهى) إلا فى آية واحدة أخرى هى الآية الواحدة والأربعون من سورة « يوسف » ، إذ تنتهى بكلمة « تستفتيان » . فهذه الفاصلة مما تتميز به سورة « الرحمن » عن سور القرآن جميعًا. وهى تناسب التثنية التى تسود السورة ، حيث إن صيغة التثنية فى الفعل المضارع المرفوع (إذ كلّ أفعال التثنية فى السورة

أفعال مضارعة مرفوعة) وكذلك فى الأسماء تنتهى بـ « ... ـان » . وبالمناسبة ، فهذه هـى الفواصل التـى وردت بصيغة التثنية : تكذبان ـ يلتقيان ـ لا يبغيان ـ جنتـان ـ تجريان ـ زوجان ـ جنتان - مدهامتان ـ نضّاختان . وقد تكررت كلمة « تكذبان » فى الفاصلة أكثر من ثلاثين مرة .

والملاحظ أن الآيتين اللتين تتكلمان عن الله سبحانه قد انتهتا بفاصلة أخرى غير فاصلة الـ « ... ـان » ، هى فاصلة الـ « ... ـام » . وبهذا ميّزت السورة بين الله سبحانه الواحد الأحد ومخلوقاته التى صاغها على أساس الثنائية ، فجعلت فواصل الآيات التى تتحدث عن تلك المخلوقات تنتهى بفاصلة تدل على التثنية أو تشبهها ، بينما جعلت فاصلتى الآيتين اللتين تتحدثان عنه سبحانه شيئًا آخر .

وتشدُّ الآيتان الخامسة والسادسة النظر بتركيبهما الخاص (هكذا : « الشمس والقمر بحسبان * والنجم والشجر يسجدان ») ، حيث ذُكِرت الشمس فالقمر ، ثم النجم فالشجر . وأغلب الظن أنَّ « النجم » هو النبات الذى لا ساق له . وقد اخترت هذا التفسير لأنه يتحقق به مراعاة النظير والطباق، فالنبات والشجر ينتميان إلى عالم واحد هو عالم الزرع ، مثلما تنتمى الشمس والقمر إلى عالم واحد هو عالم الأجرام السماوية . كما أن بين « النجم » و « الشجر » طباقًا مثلما بين « الشمس » و « القمر » . وما يلفت النظر أكثر من غيره فى تركيب الآيتين هو ورود كلمة « النجم » فى موضعها الذى أتت فيه ، إذ هـى تبدو للوهلة الأولى وكأنها تنتمى إلى عالم الأجرام السماوية مثل الشمس والقمر ، ومن ثم لا يحسُّ القارىء غرابة فى ورودها بعدهما . لكنه عندما يرى كلمة « الشجر » التى أتت عقبها سرعان ما يتنبه إلى أنها تنتمى إلى عالم المزروعات . وفضـلا عـن هـذا فوزن لفظتـى « النجـم والشجـر » هـو نفسـه وزن لفظتـى « الشمس

والقمر » على الترتيب ، وهو « فَعْل - فعَل » .

وقد ذكرت الآية الأخيرة أن النجم والشجر يسجدان . ومن الممكن أن يكون لهما سجود بطريقة لا نعرفها ولكن يعلمها مولاهما. وينبغى ألا نستغرب هذا ، فإن العلماء يقولون إن النباتات تحسُّ وتستجيب للمؤثرات من حولها . ولا داعى لأن نجعل أنفسنا مقياسًا لكل شىء فننفى أن يسجد النبات لأنه ليس له عقل كعقلنا ولا شعور من جنس شعورنا . إن الحياة بالنسبة لنا مفعمة بالأسرار والألغاز ، ومن ثم فلا بد من التواضع وعدم المسارعة إلى الإنكار . ومع ذلك فمن الممكن أن يكون معنى « السُّجود » هو « الخضوع » ، أو تكون الكلمة استعارة . وهذا مما نفوض العلم فيه إلى اللَّه . ومثله قوله تعالى : « أو لم يروا إلى ما خلق الله من شىء يتفيأ ظلاله عن اليمين والشمائل سُجَّدا لله وهم داخرون ؟ * ولله يسجد ما فى السموات وما فى الأرض من دابَّة والملائكة وهم لا يستكبرون » (٣٠) ، فمخلوقات الله كلها ساجدة لربها خاضعة له تأتمر بأمره وتنتهى بنهيه لا يشذ عن ذلك منها شىء . حتى الإنسان الذى يعصى ربَّه هو خاضع له وساجد رغم أنفه . فكل ما فيه يجرى كرها على مقتضى الإرادة الإلهية متمثلة فى القوانين المختلفة التى تحكم جسده ونفسه وعقله وروحه ، وتحكم كذلك العالم الذى يتعامل معه ويتأثر به ويؤثر فيه .

هوامش الفصل الثانى

١- الرحمن / ٣٥ .

٢- الرحمن / ٣٣ .

٣- الجامع لأحكام القرآن /١٧ / ١٥٨ . والشاهدان الأخيران من معلقتى امرىء القيس وطرفة بن العبد على الترتيب .

4- Malik Ghulam Farid , The Holy Qur'an , The London Mosque , 1981 , p.1115, n. 2923

٥- الأنعام / ١٣٠ .

٦- كما فى : الأعراف / ٣٨ ، ١٧٩ ، والأحقاف / ١٨ ، والذاريات / ٥٦ ، والجن / ٥ .

7- Regis Blachere , Le Coran , Paris , Librairie Orientale et Americaine , 1957 , p. 568 , n. 12 .

٨- وما دام الأمر كذلك ، فلماذا لا نقول إن امرأ القيس وطرفة وغيرهما من الشعراء القدماء كانوا يتحدثون فى شعرهم عن مواقف مختلفة : مخاطبين أحيانا صديقًا واحدا لأنهم لم يكن معهم إلا واحد فى ذلك الموقف ، وموجهين الكلام أحيانا أخرى إلى اثنين أو أكثر لأنهم كان معهم فى موقف آخر صديقان أو أكثر من صديقين .

9- Abdullah Yusuf Ali , The Holy Quran , The Islamic University of Al-Imam Mohammad inb Sa'ud , p. 1473 , n. 5180

١٠- حاشيــة الصــارى على تفسير الجلالين / مصطفى البابى الحلبى / القاهرة / ١٣٦٠ هـ - ١٩٤١م / ٤ / ١٤٦ .

١١- الآية / ٤٤ .

١٢- تفسير القرطبى / ١٧ / ١٦٠ .

١٣- تفسير الطبرسى المسمّى « مجمع البيان فى تفسير القرآن » / دار مكتبة الحياة / بيروت / مجلد ٦ / ج ٢٧ / ٨٧ .

14- Sale's Koran , Frederick Warne , London ,
15- N.J. Dawood , The Koran, Penguine Books , 1978 , p. 19 , n. 1 .
16- Ludwig Ullmann , Der Koran ,Wilhelm Goldmann, Munchen, s. 433 , n. 5.
١٧- نفس هذه العبارة اختُتِمت بها أيضا الآيات الأربع الأولى من المزمور الثامن عشر بعد المائة .
١٨- انظر أيضا الآية الأولى من المزمور الثامن والثلاثين بعد المائة : « أحمدك من كل قلبى * قدّام الآلهة أرنّم لك » ، وفضلاً عن ذلك فإن عبارات مثل « من النهر يشرب فى الطريق . لذلك يرفــع الرأس » (مزمور / ١١٠ / ٧) ، و « قُم يا رب إلى راحتك وتابوت عزّك » (مزمــور ١٣٢ / ٨) لا يمكن أن تناسب جلال الله وما يجب له من التقديس والتعظيم المتناهيين . وهذا أقلّ ما يمكن أن يقال فيها .
١٩- النساء / ١٥٩ .
٢٠- الرعد / ٢ .
٢١- النساء / ١٥٩ .
٢٢- الآية / ٥ .
٢٢- تفسير الطبرى / مجلد ١١ / ج ٢٧ / ٦٨ .
٢٣- تفسير القرطبى / ١٧ / ١٥٣ .
٢٤- سيد قطب / فى ظلال القرآن / دار الشروق / ٦ / ٣٤٤٨ .
25- J. M. Rodwell , Dent & Dutton , London & New York , 1909 , p. 74 .
26-Muhammad Marmaduke Pickthal , The Glorious Koran , Muslim World League , Mecca Al-Mukarramah , 1977 , p. 590 .
27- N. J. Dawood , The Koran , p. 19 .
وقريب من ذلك ترجمة كازيميرمسكى ، التى تجرى على النحو التالى :
" Le soleil et la lune parcourent la route tracee "
(Le coran , Garnier - Flammarion , Paris , 1970 , p. 416) .
28- Ludwig Ullmann , s. 432 .
٢٩- الآية / ٧ .

٣٠- النحل / ٤٨ - ٤٩ .

ملاحظات فى تفسير السورة

فى قوله تعالى : « خَلَقَ الإنسانَ من صلصال كالفَخَّار » ، أى من نوع معين من الطين ، نجد عجبًا ، إذ لم يكتشف العلم إلا مؤخرا أن الإنسان مكون من نفس العناصر التى تتركب منها الأرض . ولأن هذا أمرٌ أصبح معروفًا فإنى لا أجد داعيًا إلى التوقف عنده .

وقد وصفت الآية السابعة عشرة الله سبحانه وتعالى بأنه « رب المشرقين ورب المغربين » . كما وُصِفَ سبحانه فى مواضع أخرى من القرآن الكريم بأنه « رب المشرق والمغرب » (١) و « رب المشارق والمغارب » (٢) . فأما « رب المشرق والمغرب » فمعناه : رب مشرق كل نجم ومغربه فى كل يوم . والنجوم التى تشرق وتغرب لا حصر لها . ومثل ذلك فى المعنى : « رب المشارق والمغارب » . والألف واللام هنا وهناك للجنس . كل ما فى الأمر أنها فى الآية الأولى دخلت على المفرد ، وفى الثانية على الجمع . وأمَّا « رب المشرقين ورب المغربين » فالمقصود فيما أفهم : رب مشرقى الشمس والقمر ومغربيهما . ولكن بعض المفسرين يرون أن المشرقين والمغربين فى هذه الآية هما مشرقا الصيف والشتاء ومغرباهما (٣) . إلاَّ أن السؤال هو : ولِمَ الصيف والشتاء فقط دون الخريف والربيع ؟ ثم أليس هناك مشر ق ومغرب خاصان بكل يوم ؟ وهناك تفسير آخر يقدمه مالك غلام فريد مفاده أن الكرة الأرضية تنقسم إلى نصف شمالى وآخر جنوبى ، ولكل نصف مشرقه ومغربه ، فهما إذن مشرقان ومغربان (٤) . بيد أنه ينبغى ألا يفوتنا أن حركة الكرة الأرضية لا تتم فجأة من نصفها الأول إلى نصفها الآخر بحيث يكون هناك مشرق ومغرب واحد فقط لكل من النصفين ، بل تتم

على نحو يجعل فى كل لحظة مشرقًا ومغربًا فى عدة بلاد معا .

أما قوله عزَّ من قائل : « مرج البحرين يلتقيان * بينهما برزخ لا يبغيان * فبأى آلاء ربكما تكذبان ؟ * يخرج منهما اللؤلؤ والمرجان » (٥) فيبدو لأول وهلة غريبًا ، لأن المظنون أن اللؤلؤ والمرجان لا يخرجان إلا من البحر الملح ، أما البحر العذب فلا . وقد ذهب المفسرون فى هذه الآيات مذاهب لم تصب الحقيقة ، فبعضهم قال إن المقصود أنهما يخرجان من مجموع مياههما لا أنهما يخرجان من كليهما . وبعضهم قال إن المقصود بحر السماء وبحر الأرض ، ويقصدون ببحر السماء ماء المطر ، وإن المعنى هو أن اللؤلؤ والمرجان يخرجانْ من أصداف بحر الأرض عن قَطْر ماء السماء . وفريق ثالث ذكر أن البحرين هما بحر فارس وبحر الروم ، أى أنهما بحران ملحان كلاهما (٦) .

لكن ماذا نفعل أمام قوله تعالى فى الآية الثانية عشرة من سورة « فاطر » : « وما يستوى البحران : هذا عَذْبٌ فُراتٌ سائغٌ شرابه ، وهذا مِلْحٌ أجاج . ومن كلٍّ تأكلون لحما طريًا وتستخرجون حلية تلبسونها » ، وهو قاطع الدلالة فى أن المقصود بالبحرين هما البحار والأنهار وليس بحر السماء وبحر الأرض (إن كانت اللغة تسمى ماء المطر بحرًا ، وهى لا تسميه كذلك) ، وأن الحلية تُسْتَخْرَج من كُلا البحرين لا من مجموع مياههما .

وقد وجدت سيد قطب ، وهو المفسّر المعاصر ، يمرّ على هذه النقطة الحساسة مرور الكرام فلا يشير من قريب أو بعيد إلى مسألة استخراج الحلىّ من الأنهار .

وبالنسبة للترجمات القرآنية فإن رودويل يترجم هذه الآية هكذا : From both ye eat fresh fish and take forth for you ornaments to wear . ومعنى ذلك

أنـــه يــرى أن الحليـــة تستخـــرج مـــن مجمـــوع ميـــاه البحريـــن ، وإلا لقال : « From each ... » بدلاً من « From both » ، لأن الأولى معناها : « ومن كلٍّ ... »، أما الثانية فتعنى « منهما معًا ... » . وفى الترجمة الألمانية التى قام بها رودى باريت يترجم ذلك المستشرق الآية بقولـه : « ... und (aus dem Salzmeer) geurnnt ihr shummuck ... um ihm euch anzulegen (مضيفـا مـن عنده بيـن قوسيـن عبـارة « aus dem Salzmeer : من البحر الملح ») ، أى « ومن البحر الملح تستخرجون حلية تلبسونها » ، فتصرّف بذلك فى الآية لكى تتطابق مع ما يظنه من أن الأنهار لا تُسْتَخْرَج منها أى حلىّ .

والواقع أن اللؤلؤ ، كما يستخرج من البحار ، يستخرج أيضا من الأنهار ، إذ توجد اللآلىء فى المياه العذبـة فى إنجلترا وأسكتلندا وويلز وتشيكوسلوفاكيا واليابان مثلاً . ويدخل فى ذلك ما تحمله المياه العذبة من المعادن العالية الصلادة كالماس ، الذى يستخرج من رواسب الأنهار الجافة المعروفة باليرقة . ويوجد الياقوت أيضا فى الرواسب النهرية فى موجوك بالقرب من باندالاس فى بورما العليا ، وكذلك فى سيام وسيلان . وبالمثل يوجد حجر التوباز فى الرواسب النهرية فى مواقع كثيرة من البرازيل والأورال وسيبريا . والزيركون ، وهو من الأحجار الكريمة ويشبهُ الماس ، تُسْتخرج معظم أنواعه الكريمة من الرواسب النهرية (٧) .

أما « البرزخ » فى قوله تعالى : « بينهما برزخ لا يبغيان » ، وكذلك فى قوله جل جلاله : « وجعل بينهما برزخا وحجرا محجورا » (٨) ، فيرى د. موريس بوكاى ، الطبيب الفرنسى الذى أسلم منذ سنوات بعد دراسة القرآن الكريم فى لغته الأصلية ، أن المراد به عدم الاختلاط الفورى لمياه البحر الملحة بالمياه العذبة للأنهار الكبيرة .

ويستطرد قائلاً إن البعض يرى أن القرآن قد أشار إلى هذه الظاهرة لعلاقتها بمصب نهرى دجلة والفرات ، اللذين يشكلان بالتقائهما بحرًا (٩) .

والواقع أن البحرين هنا ، قياساً على آية سورة « الفرقان » ، هما البحر الملح والبحر العذب ، بينما دجلة والفرات كلاهما بحر عذب (أى نهر) . ثم إن النهر عند التقائه بالبحر يبغى ماؤه على ماء البحر فى البداية لينتهى الأمر ببغى ماء البحر على ماء النهر ، إذ يتحول الماء العذب إلى مــاء ملح ويصبح جزءًا من البحر . فأين البرزخ إذن ؟ يبدو لى أن البرزخ المذكور هو القوانين التى بمقتضاها بقى كل من الماء العذب والماء الملح كل هذه الدهور المتطاولة وسيبقيان إلى آخر الزمان ، لأن الأنهار تصب فى البحار ، ويقوم الهواء والشمس بتبخير ماء البحر ، الذى يتحول إلى سحاب ثم يهطل مطرًا على الجبال فينحدر منها إلى مجارى الأنهار ... وهكذا دواليك .

وقد فسَّر مالك غلام فريد « البحرين » فى الآيات بأنهما البحر الأحمر والبحر المتوسط ، أو المحيط الأطلنطى والمحيط الهادى . وهو يرى أن الآية نبوءة بشق قناة السويس ، التى « التقى » عن طريقها البحران الأحمر والمتوسط ، وشق قناة بنما ، التى « التقى » من خلالها المحيطان الأطلنطى والهادى (١٠) . إلاَّ أنه بهذا قد تجاهل أن الإشارة إلى « البحرين » قد أتت فــى موضعين آخرين فى القرْآن على ما سبق بيانه ، وفى كل مرة كان المقصود بهما « البحر والنهر » . ثم ما دليله على أن المقصود بهما البحران المتوسط والأحمر أو المحيطان الأطلنطى والهادى بالذات ؟ إن المحيط الهادى مثلا يلتقى هو والمحيط الهندى ، وهذا يلتقى بالمحيط الأطلنطى ، وهذا بالمحيط الهادى (ولكن ليس عن طريق قناة بنما ؛ بل عند الطرف الجنوبى لقارة أمريكا الجنوبية) . وكذلك يلتقى البحر المتوسط والمحيط الأطلنطى عند الطرف الشمالى الغربى

لقارة أفريقيا ، كما يلتقى البحر الأسود والبحر المتوسط ... وهكذا . وهذه الالتقاءات ليست وليدة العصر الحديث بل قائمة منذ دهور متطاولة . فلماذا ترك هذا كله واختار قناة السويس وقناة بنما بالذات ؟ ثم أين « البرزخ » الذى ذكرته الآيات والذى يمنع البحرين من أن يبغيا ؟ إن « أل » فى « البحريـن » هى للجنس لا للعهد . والمقصود « البحر والنهر » أو كما كان القدماء يقولون : « البحر الملح والبحر العذب » . ولو كانت الألف واللام للعهد ، فأين ما تعود عليه كلمة « البحران » ؟ إنه لا السياق اللفظى ولا السياق المعنوى يشير إلى بحرين معهوديـن . إن المقصـود بذلك ، فيما نعتقد ، هو التقاء البحار والأنهار عند مصبات هذه الأخيرة . ورغم هذا الالتقاء فلا البحر يبغى على النهر ولا هذا يبغى على ذاك ، لأن مايفقده النهر فى البحر بالصبّ يعود فيسترده من السحب التى تتبخّر مياهها من البحر وتنتقل إلى منبعه وتهطل مطرا هناك يمدّه بما كان قد فقده ... وهكذا . فالبرزخ الذى يمنعهما من البغى هو القوانين الإلهية التى تحكم عمليات البخر وتكوين السحب وهطول الأمطار وجرى الأنهار إلى مصباتها .

وتقول الآية السادسة والعشرون : « كل من عليها فان » . ويوجهها المفسرون على أساس أن الضمير فى « عليها » يعود على الأرض (١١) ، رغم أنه لم يسبق للأرض ذكر فى السياق . وأرى أن هذا تضييق للتعبير القرآنى الذى لم يحدد مرجع الضمير . وينبغى علينا نحن أيضا ألاّ نحدّده بل نتركه مفتوحًا ليشمل كل شىء فى الكون ، إذ إن الفناء ليس مكتوبا على البشر وحدهم ، بل هو يطول البشر والجن والحيوان والجماد . وحتى ولو كان المقصود بذلك البشر وحدهم فإن أقدام البشر قد وصلت القمر ، وربّما استطاعوا العيش فوقه يومًا ، بل ربما وصلوا إلى كواكب أخرى

وعاشوا فوقهـا . وأرى أن المقصـود هو أن كل من فى الدنيا (وليس على الأرض فقط) مكتوب عليه الهلاك ، ولا يبقى إلا وجه الله سبحانه . وحرف الجرّ « على » فى الآية قد جاء محل « فى » . وتبادل حروف الجر أماكنها جائز فى لغتنا .

والمقصود بـ « السؤال » فى قوله تعالى « يسأله (أى يسأل الله) من فى السماوات والأرض » (١٢) هو سؤال مخلوقاته حاجاتهم منه سبحانه : بعضهم بلسان الحال والمقال ، وبعضهم بلسان الحال فقط . ومن هؤلاء الكافرون به سبحانه ، إذ إنهم لا يطلبون منه ما يحتاجونه بألسنتهم . بيد أن ذلك لا يعنى أبدا أنَّهم مستغنون عنه ، وإلاَّ فمن الذى خلقهم ويحييهم ويوفر لهم أسباب الحياة ؟ إنه الله عز وجلّ .

أما بقية الآية (ونصها « كلَّ يوم هو فى شأن ») فإشارة إلى أن عناية اللّه وتدبيره لأمور الكون كلّه (لا البشـر وحدهـم ، كما يفهم من كلام المفسرين) لا يتوقفان . ولو تخلَّت عناية الله عن المخلوقات لحظة لهلك كل شىء وأصبح عدمًا . وقد قال اليهود إنه سبحانه قد خلق الكون فى ستة أيام واستراح فى اليوم السابع ، وهو يوم السبت عندهم (١٣) . وهذا سخف لا تنتجه إلا عقول اليهود الوثنية ، فالله سبحانه لا يمسُّه نَصَب ولا لُغوب ، ولا تتوقف رعايته لمخلوقاته لمحة بصر .

وفى الآية الواحدة والثلاثين نقرأ قوله تعالى : « سنفرغ لكمُ أيها الثَّقَلان » . وليس معنى الفراغ هنا أنه سبحانه كان مشغولا قبلاً . وإنما المقصود أن يوم الحساب آت ، وأن الله سائل كل فرد عما عمل فى دنياه ومثيبٌ المطيع ومعاقبٌ العاصى . وهذا مثل قولنا : « سأقطع رجل فلان من هنا » ، ولا قطع ولا خلافه ، بل المراد أننى سأمنعه من المجىء إلى هنا ، وقولنا « حطَّ فلان عصا التسيار » بمعنى « انتهى من رحلته واستقر بالمكان الفلانى » ، ولا عصا ولا يحزنون .

ويهدد الله عز وجلّ الكافرين والعصاة بأنهم لن يستطيعوا الإفلات من قبضته سبحانه . وكيف يمكنهم ذلك والسماوات والأرض والكون كله فى القبضة القدسية ؟ إن الجبار يتوعد عباده المتمردين أن يرسل عليهم النيران والنحاس فلا يستطيعون أن يدفعوا ذلك عن أنفسهم (١٤) .

وكلمة « شُوَاظ » بجرسها وحده مخيفة . ومعناها اللهب أو الدخان . ويلاحظ أن « النحاس » المذكور فى الآية غير محدَّد . وقد فسره البعض بأنه النحاس المذاب (١٥) ، وهذا لا يكون إلا عند بلوغ حرارته درجة رهيبة تجعل ألم الشخص الذى يُصَبُّ عليه لايُتَصَوَّر . وقد نطق بعضهم « شواظ » و « نحاس » بكسر الشين والنون على الترتيب . وهذه لغة ، كما أن ضمّ هذين الحرفين لغة أخرى .

وتتحدث الآ ة السابعة والثلاثون عن بعض أحداث القيامة ، فتذكر انشقاق السماء وصيرورتها « وردة كالدِّهان » . وتقول الآية التاسعة والثلاثون إنه فى ذلك اليوم لا يُسأل أحد من الإنس أو الجن عن ذنبه .

ولكن كيف تنشقُّ السماء ؟ ذلك ما لا يمكن معرفته ، لأنه أمر لم يحدث بعد . وأرى أن يُفَوَّض العلم بذلك إلى الله سبحانه . أمَّا كيف ستكون السماء وردة فإن المفسرين قالوا ، ضمن ما قالوا ، إن ذلك لون الحمرة . وفى تفسيُر تشبيهها بالدهان أوردوا آراء مختلفة ، فقيل إنها ستكون فى صفاء الدهن ، وقيل إنها ستكون لامعة مثله ، وقيل إنها ستسيل كما يسيل عند احتراره ، وقيل غير ذلك (١٦) . وسبب هذه الاختلافات أن الآية تتحدث عن أمر من أمور الغيب وأنها اصطنعت فى ذلك أسلوبا شديد الإيجاز فلم تذكر مثلاً وجه الشبه بين السماء فى ذلك اليوم وبين الدهان ، علاوةً على أن لكلمة « الدهان » أكثر من معنى ، إذ هى تعنى أيضًا « الجلد الأحمر

الصرف » . وإنى لأرى أن معنى هذه الآيات لن يتضح إلا عند القيامة ورؤية الناس ما يحدث آنئذ بأعينهم .

وفى ذلك اليوم لن يُسْأل أحد عن ذنبه ، لأن المجرمين سوف يُعْرَفون بعلامة تميزهم . ولعل سائلاً يسأل : ألم يأت فى آيات أخرى أن الناس جميعا سوف يُحَاسَبون ويُسْألون ؟ فكيف تقول الآية إن المجرمين لن يُسْألوا عن ذنوبهم ؟ والجواب هو أن عدم السؤال خاص باليوم الذى تنشق فيه السماء وتصبح وردة كالدهان : « فإذا انشقت السماء فكانت وردة كالدهان * ... * فيومئذ لا يُسْأل عن ذنبه إنس ولا جانّ » ، وليس معناه أنه لن يكون هناك سؤال أبدًا . إن القرآن لا يمكن أن يناقض بعضه بعضا . كل ما فى الأمر أن على من يتلوه أو يدرسه أن يفتح عينيه ويقرأ نصوصه جيدا . ولسوف يجد أنه منسجم بعضه مع بعض .

وبعد أن يُعْرَف المجرمون بسيماهم سوف يؤخذ بنواصيهم وأقدامهم (١٧) . أما كيف يؤخذ بالنواصى والأقدام فذلك ممّا لم تحدده الآية . ومع هذا فقد جاء مثلا فى تفسير النووى المسمَّى « مراح لبيد » أن نواصيهم وأقدامهم تُجْمَع من وراء ظهورهم فى سلسلة فيطرحون فى النار (١٨) . ولكن لا دليل على أن ذلك هو الذى سيكون . إنما هو اجتهاد من بعض المفسرين قد يصيب وقد يخطىء . والعلم عُنْد الله سبحانه .

أما السيما التى سيُعرف بها المجرمون فقد قيل إنها سواد الوجوه وازرقاق العيون (١٩) . وقد اعتمد المفسرون فى هذا على قوله تعالى : « يوم تبيضّ وجوه وتسودّ وجوه ... » (٢٠) وقوله عز شأنه : « ونحشر المجرمين يومئذ زرقا » (٢١) . ولكن ينبغى أن نتنبه إلى أن الآية الأخيرة لم تحدد أن الزرقة ستكون فى العيون . وأرجح أنها هى والسواد سيكونان فى الوجوه ، وذلك بسبب الغمّ والمذلة والمعاناة

والاختناق . وهذا مجرد اجتهاد ، لأن القرآن الكريم قد سكت عن هذا التحديد . أما قول مالك غلام فريد إن الآية تشير إلى أمم الغرب الزرق العيون (٢٢) فهو كلام لا ينهض على أى أساس ، إذ الآية تتحدث عن اليوم الآخر لا عن الحياة الدنيا ، كما أن كثيرًا من الغربيين قد أسلموا ، فكيف يصنِّفون رغم ذلك مع المجرمين ؟ وكثير من الأتراك هم أيضا زرق العيون ، وهم لم يكونوا مسلمين فقط بل تزعموا العالم الإسلامى وفتحوا باسم الإسلام أرضين واسعة وخدموه خدمات جُلَّى . وهناك أيضا عدد كبير متناثر فى مختلف الأمم الإسلامية عيونهم زرقاء ، فما القول فى ذلك ؟ إننا لا ندافع عن الغربيين ، فهم بوجه عام فى تعاملهم مع الإسلام والمسلمين كانوا ولا يزالون مجرمين عتاةً : كذبًا وغدرا وقسوة وكفرا وحقدا . لكن ذلك شىء ، والقول بأن الآية تشير إليهم شىء آخر . كتاب الله أسمى من أن يُتَناوَل بهذه الطريقة .

ويبدو قوله تعالى : « هذه جهنم التى يكذِّب بها المجرمون * يطوفون بينها وبين حميم آن » (٢٣) وكأنه هو نفسه ما جاء فى سورة « الصافات » : « إنها (أى شجرة الزَّقُّوم) شجرة تخرج فى أصل الجحيم * طلعها كأنه رؤوس الشياطين * فإنهم لآكلون منها فمالئون منها البطون * ثم إن لهم عليها لَشَوْبًا من حميم * ثم إن مرجعهم لإلى الجحيم » (٢٤) . وطواف المجرمين بين جهنم والحميم الآنى معناه ، فيما يبدو لى ، أنهم كلما وصل عذابهم إلى درجة لا يطيقونها أُخِذوا إلى الحميم الآنى ليُغاثوا به فيحرق أجوافهم (٢٥) ، كالمستجير من الرمضاء بالنار ، ثم يعودون إلى جهنم ... وهكذا دواليك .

وتتحدث الآيات التى تلى ذلك عن بعض متع الجنة التى أعدها الله لمن يخافون مقام ربّهم . ويتهم المستشرقون الإسلام بأنه جعل تلك المتع حسّية . وحتى لو كانت هذه

الدعوى صحيحة فما العيب فى ذلك ؟ إن الآيات تتحدث عن عيون تجرى بالماء ، وفواكه ونخل ورمان ، وحور قاصرات الطرف ، وفُرُش بطائنها من إستبرق . فمن ذا الذى يكره شيئًا من هذا ؟ (٢٦) ويا ليت هؤلاء المستشرقين الذين يقولون ذلك كانوا من الزاهدين . إذن لفهمنا موقفهم . لكنهم هم وأممهم يتهافتون على الدنيا ولذائذها ويستعمرون البلاد ويقهرون العباد وينتبهون الطارف والتلاد ليستمتعوا بالدنيا وحدهم وتبقى الشعوب الأخرى فى فقرها وتخلفها وعيشتها الضنك . إن هذا الرياء يكشف عن طبيعة هؤلاء القوم . وذلك كلُّه لو كانت دعواهم صحيحة ، فكيف وهى ليست كذلك ؟ إن الآيات ، كسائر النصوص القرآنية الكريمة التى تصف نعيم الجنة ، تلمس صنوف هذا النعيم لمسات سريعة هادئة لا تُسيل لعابًا ولا تحرك شهوة ، إذ وظيفتها التذكير، والتذكير فحسب ، بما أعده الله للمتقين فى الآخرة . وانظر إلى ما تقوله الآيات التى تتحدث عن الحور العين ، وهو الموضوع الذى يبدىء فيه أعداء الإسلام ويعيدون . إن كل ما تقوله هو : « فيهن قاصرات الطرف لم يطمثهن إنس قبلهم ولا جانّ * .... * كأنهن الياقوت والمرجان » (٢٧) و « فيهن خيرات حسان * ... * حور مقصورات فى الخيام * ...* لم يطمثهن إنس قبلهم ولا جانّ » (٢٨) . فهل فى هذا الوصف ما يحرك الغرائز ؟ كيف وكلّ ما وصفهن به أنهن حييّات ويشبهن الياقوت والمرجان وأنهن مقصورات فى الخيام ؟ إنه لا كلام عن الحواجب المقوسة أو الأهداب الوطفاء أو النظرات المتكسرة أو الخدود الأسيلة أو الصدور العارية المرمرية أو الأرداف المرتجة أو الأفخاذ اللفاء أو الغُنْج والدلال والتكسر فى الحركات والأصوات أو التمدد على السّرير بإغراء . لا شىء من هذا على الإطلاق . فإذا أضفنا إلى ذلك أن القرآن دائمًا ما يتحدث عما سيتمتع به أصحاب الجنة من سكينة نفس وسلام روحى

وتحاب ومشاهدة لوجه الله الأقدس والحظوة برضوانه تعالى وسماع أصوات الملائكة وهى تسبّح ربَّها وتقدسه ، عرفنا بأية أساليب منحطة يحارب أولئك الناس الإسلام .

ويحاول القسيس رودويل أحد مترجمى القرآن الكريم إلى الإنجليزية أن يغمز النبى صلى الله عليه وسلم عند تعليقه على هذه الآيات ، إذ يقول : « من الملاحظ أن هذه الآيات التى تَعِدُ المؤمنين بالحور العين فى الجنة تكاد لا توجد إلاَّ فى السُّور التى تمت كتابتها فى وقت لم يكن فيه لمحمد (صلى الله عليه وسلم) إلا زوجة واحدة عمرها ستون عامًا ، وأنه فى جميع السنوات العشر التالية للهجرة لم تُذْكَر النساء كجزء من ثواب المؤمنين إلاَّ فى موضعين اثنين ليس إلاَّ، وهما الآية ٢٣ من « البقرة » والآية ٦٠ من « النساء » (٢٩) . يريد القسيس أن يقول إن الجنة تعكس تطلع الرسول عليه السلام إلى النساء الشوابّ الجميلات أيام أن لم يكن عنده إلا خديجة العجوز . أما بعد انتقاله إلى المدينة وتزوجه من عائشة وحفصة وغيرهما فقد كفّ عن الحديث عن هذا اللون من ملذات الجنة ، وكأن القرآن هو من صنع الرسول عليه الصلاة والسلام يعكس حالته النفسية .

وقد فات رودويل أن الرسول ظل يحب خديجة حتى بعد موتها ويفضلها على نسائه الأخريات جميعًا بما فيهن عائشة ، التى ظنت أن شبابها وجمالها يجعلان لها موقعًا فى قلبه لا يضاهَى . ثم لو كان الرسول يتطلع فى مكة إلى زوجة شابة جميلة ، فما الذى كان يمنعه من أن يتزوج على خديجة ، وهى التى طلبته للزواج ولم يطلبها هو ؟ كما فات المستشرق اللمَّاز أن الكلام عن متع الجنة كلها (لا النساء وحدهن) قد اختفى أو كاد فى الوحى المدنى . ذلك أن السور المكية كانت قد أرست أصول العقيدة فى نفوس المؤمنين ، وجدّت فى المدينة أوضاع وقضايا أخرى ،وكانت هناك دولة

تحتاج إلى تشريعات وقوانين ، مما تكفلت به السور المدنية . هذا هو التفسير الصحيح لا ما قاله رودويل .

وإذا كان هذا الادعاء مفهومًا من المستشرقين فإن من العجيب أن يردد مثله عالم يتتمى إلى الإسلام ، هو الشيخ أبو بكر حمزة (٣٠) ، الذى قال فى ترجمته الفرنسية للقرآن ، تعليقا على الآية ٢٢ من سورة « الطور » ، إن متع الجنة كما فصّلها القرآن ينبغى ألا تؤخذ على ظاهرها ، وإنه إذا كان القرآن قد تحدث عن الحور العين والفاكهة واللحم فقد كانت عينه على العرب الحسيين الأجلاف المتضورين جوعًا والذين كان شعراؤهم كثيرا ما يشتكون الجوع فى أشعارهم ونادرًا مما كانوا يتحدثون عن العطش (٣١) .

وهذا الكلام يثير أكثر من سؤال .

١- هل الإسلام دين عربى جاء إلى العرب وحدهم حتى يعمل القرآن لهم كل هذا الحساب فيصور الجنة وفق مرادهم ؟ فكيف إذن دخلت كل هذه الأجناس الأخرى فيه ؟

٢- وهل العرب ينفردون من بين الأمم جميعا بحب الطعام الشهى والمرأة الجميلة ؟ إن هذه هى دعوى عامة المستشرقين ، الذين يريدون أن يقولوا إن أممهم أرقى من أمة العرب . فهل يوجد من بين هؤلاء المستشرقين وأممهم من ينفر من أكلة شهية أو يتقزز من امرأة جميلة ؟ إن السعار وراء هذه المتع لعلى أشده فى هذه المجتمعات . فلم الاستعلاء على المتع التى وعد الله بها عباده المتقين فى جنات عدن ؟ إننى أفهم أن يقول قائل إن هذه اللذات ، على حالتها التى هى عليها فى الدنيا ، لها جانبها المنفر : فالطعام مثلاً قد يسبب لنا مغصا . وهو بعد أن نشبع منه لا تعود له

الجانبية الأولى . ثم إنه إذا تُرك فترة طويلة دون تثليج يتعفن . فهذه ملاحظة لها وجاهتها . ولكن من قال إن متع الجنة ستكون كمتع هذه الدنيا ؟ إنها ، كما يؤكد القرآن والحديث ، سوف تكون متعا خالصة مصفاة . ونحن لا يمكننا أن نعرف طبيعة هذه المتع ، لسبب بسيط هو أن القرآن الكريم يذكر أنه سوف « تُبدَّل الأرضُ غير الأرض والسماوات » (٣٢) ، أى أن الكون سوف يتخذ وضعا جديدا ، وسوف يجرى على قوانين أخرى غير التى نعهدها الآن . أما أن نجزم بأن متع الجنة ستكون متعا روحية فقط فهذا رجم بالغيب .

٣ - لا أظن الأستاذ المترجم ، وهو المسلم ، إلا موقنا بأن الذين آمنوا بالرسول عليه السلام أفضل أخلاقا وأزكى نفوسا ممن كفروا به . فهل يعنى توجيهه للآيات التى تصف نعيم الجنة أن الذين آمنوا به عليه السلام كانوا أكثر حسّية وأسعى وراء متع البطن والفرج من الكفار ؟

٤ - إن كلام الشيخ أبوبكر حمزة يوحى بأن القرآن قد اهتم بوصف طعام أهل الجنة ولم يهتم بوصف مشاربها . لكن القرآن قد ذكر فى أكثر من موضعٍ مشارب أهل الجنة ، وبخاصة الخمر التى لا يُصَدَّع شاربوها عنها ولا يُنْزِفون ، والماء المعين الجارى . وسورة « الرحمن » قد ذكرت أربع عيون تتفجر بالماء . وما أكثر ما تكررت عبارة « جنات تجرى من تحتها الأنهار » فى القرآن الكريم .

ورغم ذلك فلن تكون متع الجنة ، كما أسلفت القول ، مقصورة على هذه اللذائذ وحدها ، فثمة رضوان الله والسلام الشامل الذى ستتقلب فيه نفوس الصالحين ، وثمة وجه الله ذو الجلال والإكرام .

وأيا ما يكن الأمر فلست أرى أى مسوّغ لهذه الحساسية التى يشعر بها بعض

المسلمين كلما تحدثوا عن دينهم إلى الغربيين . وليس من المعقول أن ندعو الناس إلى دين الله بأسلوب يُشْتَمُّ منه رائحة الاعتذار عن الله . والله سبحانه غنى عن العالمين .

وبالنسبة لما جاء فى سورتنا من أنه سيكون هناك للذين يخافون مقام ربهم جنتان ذواتا أفنان ، ومن دونهما جنتان أخريان مدهامتان (الآيات ٤٦ - ٧٦) ، يطلع علينا ريجى بلاشير بنظرية عجيبة تقول إن ما جاء فى وصف الجنتين الأخيرتين هو نفسه ما جاء فى وصف الأوليين ، ومن ثمّ فالوصف الأخير هو مجرد صياغة ثانية للأول ، وبدلاً من أن يحل محله فإنه قد وُضع بعده . ثم يمضى قائلا إنه إذا صح هذا الافتراض فإن الضمير فى قولـه : « ومن دونهما جنتان » لا يعود على الجنتين الأوليين ، اللتين لن يكون لهما وجود بعد حذف الوصف الأول والاكتفاء بالثانى ، بل يعود إلى « جهنم والحميم الآنى » المذكورين قبل ذلك فى الآيتين ٤٣ - ٤٤ (٣٣) .

وإننا لنتساءل : من أين ليلاشير أن الوصفين هما لنفس الجنتين ؟ إن ذلك رجم بالغيب فى أمر لا يحتمل شيئا من هذا الهزل ، إذ لماذا تعاد صياغة عدة آيات ؟ وكيف فات ذلك على المسلمين فأبقوا على النصين جميعًا بدلاً من حذف النص القديم والاكتفاء بصورته الجديدة ؟

وإن نظرة سريعة للوصفين لترينا أن الأمرين مختلفان : فالجنتان الأولَيَـان قـد وصفتا بأنهما « ذواتا أفنان » ، والأخيرتان بأنهما « مدهامتان » . والعينان اللتان فى الأوليين قيل عنهما إنهما « تجريان » ، بينما قيل عن العينين الأخريين إنهما « نضاختان » . وفى فواكه الأولى جاء قوله تعالى : « فيهما من كل فاكهة زوجان » ، وفى فواكه الثانية جاء : « فيهما فاكهة ونخل ورمان » . وسوف يكون المتقون فى الجنة الأولى « متكئين على فرش بطائنها من إستبرق » ، أما فى الثانية فسيكونون

« متكئين على رفرف خضر وعبقرى حسان » ، علاوةً على أنه لم يُقَلْ عن جَنَى الأخريين إنه « دانٍ » على عكس الأوليين . وقد وصفت نساء الجنتين الأخيرتين بأنهن « حور مقصورات فى الخيام » ، وهو ما لم توصف به نساء الأوليين ، مثلما انفردت نساء هاتين بتشبيههن بالياقوت والمرجان . وليس ثمة شيء مشترك فى الوصفين إلا ما جاء في وصف النسائين من أنهن « لم يطمثهن إنس قبلهم ولا جانّ » . ثم أين نجد صاحب الحال فى قوله تعالى : « متكئين على رفرف خضر وعبقرى حسان » (٣٤) ، لو حذفنا وصف الجنتين الأوليين الذى يحاول بلاشير أن يوهم أنه هو نفسه الوصف الآخر الذى نظنه لجنتين أخريين مختلفتين ؟ إن صاحب هذه الحال والحال الأخرى الموجودة فى قوله تعالى : « متكئين على فُرُش بطائنها من إستبرق وجَنَى الجنتين دان » (٣٥) هو « من خاف مقام ربّه » (٣٦) الذى يقترح بلاشير أن يُحْذَف مع وصف الجنتين الأوليين ، زاعما أنه ليس إلا صورة أولى لنفس الوصف الثانى . أرأيت كيف تتهافت نظرية بلاشير تحت أول ضربة من معول الحق ؟

هوامش الفصل الثالث

١- الشعراء / ٢٨ ، والمزمل / ٩ .

٢- المعارج / ٤٠

٣- انظر مثلا « تفسير القرآن العظيم » لابن كثير / عيسى البابى الحلبى / ٤ / ٢٧١ ، وتفسير النسفى / عيسى البابى الحلبى / ٤ / ٢٠٩ .

4- Malik Ghulam Farid , The Holy Qur'an , p. 55 , n. 2926 .

وكذلك يرى المترجم أن « المشرقين » فى الاصطلاح السياسى الحديث يمكن أن يكونا الشرق الأدنى والشرق الأقصى ، و « المغربين » أوروبا وأمريكا (نفس الموضع السابق) . وفاته أن القرآن يقول : « المشرق والمغرب » ، أما الاصطلاح السياسى فيقول : « الشرق والغرب » . وهذا غير ذاك . كذلك فاته أن هناك « الشرق الأدنى والأوسط والأقصى » وليس « الأدنى والأقصى » فقط . ثم إن الغرب فيه غرب واحد فقط هو أوروبا وأمريكا معًا . ويقول الكاتب إن نور الإسلام بعد أن يعمَّ الشرق سوف يسطع على الغرب . ونحن نرى أن الإسلام سيعاود فعلا انتصاراته كرة أخرى ، إلا أن هذا لا يجعل ما قاله عن « المشرقين والمغربين » صحيحا .

٥- الآيات ١٩ - ٢٢ . واللؤلؤ والمرجان : صغار اللؤلؤ وكباره ، عند كثير من المفسرين القدامى .

٦- انظر ذلك مثلا فى تفسير الطبرى / مجلد ١١/ ج ٢٧ / ٧٥ ، و تفسير القرطبى / ١٧ / ١٦٣ .

٧- انظر التعليق العلمى على الآية ١٢ من سورة « فاطر » فى « المنتخب فى تفسير القرآن الكريم » .

٨- الفرقان / ٥٣ .

٩- انظر موريس بوكاى / القرآن والتوراة والإنجيل والعلم - دراسة الكتب المقدسة فى ضوء

المعارف الحديثة / دار المعارف / القاهرة / ١٩٨٢ / ٢٠٥ . وانظر كذلك « المنتخب فى تفسير القرآن الكريم » فى تعليقه فى الهامش على الآية ٥٣ من « الفرقان » .

10- Malik Ghulam Farid , The Holy Qur'an , p. 1156 , n. 2927 .

١١- انظر على سبيل المثال تفسير القرطبى / ١٧ / ١٦٤ ، وتفسير الطبرسى / مجلد ١٦ / ج ٢٧ / ٩١ .

١٢- الآية / ٢٩ .

١٣- تكوين / ٢ / ٢ - ٣ .

١٤- الآيات / ٣٣ - ٣٥ .

١٥- انظر مثلا تفسير القرطبى / ١٧ / ١٧٢ ، و « المنتخب فى تفسير القرآن » عند تفسير الآية . وبعضهم فسّره بأنه الدخان .

١٦- انظر مثلا تفسير القرطبى / ١٧ / ١٧٣ .

١٧- نص الآيات هو : « فيومئذ لا يُسأل عن ذنبه إنس ولا جانّ * فبأى آلاء ربكما تكذّبان ؟ يُعرَف المجرمون بسيماهم فيُؤْخَذُ بالنواصى والأقدام » . وهذا يشبه قوله تعالى (البقرة / ٢٧٣) : « تعرفهم (أى الفقراء) بسيماهم . لا يسألون الناس إلحافا » . ووجه الشبه أمران : عدم السؤال ، والمعرفة بالسيما . والنصان مختلفان بعد ذلك فى كل شىء : فى البيئة والزمان والموضوع ، وهو ما يجعل التشابه عجيبا .

١٨- انظر مثلا تفسير النووى المسمّى « مراح لبيد » / عيسى البابى الحلبى / ٢ / ٣٤٣ .

١٩- انظر مثلا المرجع السابق / نفس الجزء والصفحة .

٢٠- آل عمران / ١٠٦ .

٢١- طه / ١٠٢ .

22- Malik Ghulam Farid , The Holy Qur'an , p. 680 , n. 1849 .

٢٣- الآيتان / ٤٣ - ٤٤ .

٢٤- الصافات / ٦٤ - ٦٨ .

٢٥- انظـر تفسيـر البيضــاوى المسمـّـى « أنــوار التنـزيـــل وأســـرار التـأويـل » / مكتبـة الجمهورية المصرية / ٥٤٩ ، وانظر أيضـــا : George Sale , The Koran , p. 336 , note n & p. 395 , note m.

٢٦- وهذا لو كانت تلك الملذات بنفس الشكل الذى هى عليه فى الدنيا . ولكن العالم الآخر ، كما نعرف ، سوف يكون شيئًا مختلفا ، وإن استُخْدِمت له نفس التسميات التى نستخدمها هنا فى الدنيا

٢٧- الآيات / ٥٦ - ٥٨ .

٢٨- الآيات / ٧٠ - ٧٤ .

29- J. M. Rodwell , The Koran , p. 76 , n. 2 .

٣٠- هو صاحب إحدى أشهر ترجمات القرآن إلى الفرنسية . وكان عند صدورها فى ١٩٧٢ م شيخ المعهد الإسلامى التابع لمسجد باريس . وهو جزائرى الأصل .

29- Le Cheikh Si Boubakeur Hamza , Le Coran , Fayard-Denoel , Paris , 1972 , Tome II , p. 1042 .

٣٢- إبراهيم / ٤٨ .

33- R. Blachere , Le Coran , pp. 569 - 576 , n. 46 .

٣٤- الآية / ٧٦ .

٣٥- الاية / ٥٤ .

٣٦- الآية / ٤٦ .